معرض لوحات وتجهيز . غريتا نوفل ترسم التهجير أناساً وحقائب

"التهجير يثبت يومياً ان السلام لم يتحقق وأن البربرية لـم تُـهزم"، شعار رفعته الفنانة التشكيليـة غريـتا نوفـل، في معرضها الذي اقامته أخيراً في صالة المركز الثقافي الالماني"غوته"في بيروت، مشتملاً على سبع لوحات حبرية وعمل تجهيزي واحد لحقائب سفر تشير الى حال التمزق بين ضرورة الرحيل وصعوبة المغادرة.

من مجزرة قانا الى حرب تموز الى المتفجرات المتنقلة في بيروت، اللون الرمادي هو الطاغي في الحزن لأنه الأوحد الذي يهيمن على مساحات اللوحات السبع، بعدد أيام الأسبوع التي يفكر فيها المرء بالهجرة. هو دخان الحرائق المتصاعدة من انفجارات العبوات المزروعة في الشوارع الآمنة، هو لون ما بعد الاغتيال والموت، وهو أيضاً لون النار حين ينطفئ حطامها في القلب.

بتقنية الطباعة الرقمية للصور Inkjet عملت غريتا على إضفاء دلالات عميقة في إنسانيتها على مضمون اللون الرمادي الذي يغطي المكان من دون ان يحجب هيئات النازحين والمهجرين الذين يحملون حقائبهم كالأوزار الثقيلة على مناكبهم، في الفراغ الكبير الذي يشير الى اللامكان بل الى السراب، بينما ترتمي ظلالهم على الأرض، وقد تقوضت من احمالهم وهم مسرعون لا يعرفون الى أين يتجهون او يهاجرون.

سبع لوحات في معرض. أليـس ذلك بقليل؟ هو تساؤل بديهـي قياساً الى المعارض التقليدية التي تعكس إنتاج فنان خلال عام أو عامين. ولكن هذا القليل يعتمد في شكل أساس على النص الذي كتبته غريتا كرسالة مشفوعـة بوسائل العرض، أي اللوحات المعلقـة والتجهيز، كما يعتمد على تفاعل المثقفين مع حقائب السفر شعراً قراءات قصائد لمحمود درويش بصوت نصري الصايغ ونصاً مسرحياً ناجي سراتي وأداءً تمثيلياً لينا ابيض لنص جورج بيريك وموسيقياً جاز آرثر ساتيان. هكذا استطاعت غريتا ان تخاطب العامة من الناس وأن تشارك المثقفين محور اهتمامهم المتمثل برمز الحقيبة. وحقائب غريتا 13 حقيبة مطلية بلونَي العزلة والحزن، وهما الأبيض والرمادي.

غريتا نوفل فنانة تلقائية تتفاعل مع الحدث في تكوين مشهديتها، تتعاطف مع كل ما هو إنساني واجتماعي، بصدق في الانفعال والإحساس، لا يلبث أن يغوص في أعماق المشاعر ويصيبها في الصميم. من الصحف اليومية، تستقي العنصر الإخباري نصاً كولاج وصورة. فالصورة الفوتوغرافية هي المقتبل الإيحائي، أو الهامش العَرضيّ - المجازي لحضور الأشكال الإنسانية المتجردة من ملامحها في سراب الرمادي ولطخات النور الأبيض، فلا تظهر غير ايماءات الحركات المهزوزة والمعطوفة على برودة المكان الوحيد الذي يقصده المهاجرون مع حقائبهم وهو أروقة المطار.

التبسيط والعناصر القليلة هي سمات هذه الاعمال، التي تقول الكثير عن حياتنا الراهنة ومعاناتنا. إذ في سكون الرمادي تطل الحركة من عصب الواقع كي تصفع العين على غرار لوحة الرجل الذي يحمل عجوزاً على ظهره، في مشهد مؤثر من المشاهد الدرامية التي بدأت تتكون في ذاكرة غريتا وبصيرتها منذ حرب تموز. فالتهجير كما تصفه هو"تقريباً الموت - إن لم يكن الموت بعينه - حين نضطر ان نغادر من دون ان يتسنى لنا الوقت لنحزم حقائبنا، ونغلق عيوننا من دون ان نحلم. حين نقفل أبوابنا من دون ان نفكر الى أين نتوجه، فقط ان نرحل بعد ليالٍ من الخوف الرهيب... فنمشي لئلا نموت، غير ان ذلك ليس بدوره أكيداً. التهجير هو تقريباً الجحيم إن لم يكن الجحيم بعينه, انه صورة الخراب، صورة بلد عابر ومريض".

ما تقوله غريتا ليس قولاً عادياً بل هو صرخة ألم، نابعة من رؤية شعريـة مثـيرة بقدرتها التحريضيـة والتأويليـة لفرط ما تستدر الكلام الذي يخرج من عفو الخاطر، وربما من رفض الواقع، رفضاً يأتي من عمق الوعـي واللاوعي

الجمــعي. إنه صورة الحقـيقة الجلــية للعيان، ومراياها الضبابــية، أو Vraisemblable لفرط ما يغشاها من الاسقاطات الفنــية المغطاة بالرمــوز والتــداعيات والمكنونات الشخصية، شأن كل عمل فني يعبر عن ضمير الجماعة.